وكانت هي تقلد نفسها في أيام الصفاء فتمد يدها إلى جيبه بعد عاصفةٍ من اللوم الجارح والملاحاة الموجعة كما كانت تمدها إلى جيبه بعد ساعات الرضى والدلال لتُخرِج منه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسطرًا أو كلمات تسجل بها ما كان في ذلك اليوم، فكتبتْ يومًا بعد مقابلة لَمْ يُسمَع فيها إلا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال: «نزهةٌ رسميةٌ في عربة، ثم مناقشة جدية، ثم مصافحة وتقبيل، ولا عجب في ذلك ... فإن الحب يسهر!»

نعم، يسهر من الأرق لا من العناية!

وسهر الحب إلى اليوم التالي فالتقيا وتراضيا وتناولت هي المفكرة وكتبت فيها خمس كلمات: «سامحت من غير سبب، أحبك.»

ولكنها كانت آخر ما كتبتْ في مفكرة ذلك العام، وفيما بعده من أعوام.

ومن الناس مَن يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لَمْ يكن فيها إلا تمثيل ناجح أو تمثيل فاشل، وصاحبنا خليق أن يكون واحدًا من هؤلاء الناس لو اقتصر الأمر على الفتور والتكلف والمناقشة والملال، ولكن الشيء الذي لا يُطَاق هو أن تشك ثم لا تستطيع أن تصل إلى الحقيقة، ولا أن تكفَّ عن الشك ولا أن تستقر عليه، فإنها حالة لا يُطَاق لها دوام ولا بد لها من انتهاء.

فكيف هذا الانتهاء؟

أول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق أسبوعًا أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكون صبرهما على هذا الفراق القصير، ويعرفان من ثَمَّ كيف يكون صبرهما على الفراق الحاسم الذي لا لقاء بعده، فإن هان عليهما بعد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا إذن بغير ندم ولا خصام، وإن عزَّت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق إلى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد، وعسى أن يفهم كلاهما من مكان صاحبه عنده ما ينهاه عن مطاوعة الهواجس ومجاراة الشكوك.

وقد استفادا من هذه المحاولة العسيرة فائدة لا يحتقرانها بعد طول السآمة وطول النزاع، فإن اللهفة الصادقة التي طغت عليهما يوم عادا إلى اللقاء قد عادت بهما إلى حنينٍ شبيهٍ بالحنين بالقديم، ونعما في ذلك اليوم بمتعةٍ هنيئةٍ لَمْ ينعما بها منذ عهدٍ طويلٍ.

ولما شيَّعها إلى الباب وهو يقول إلى اللقاء في الغد، قالت: لا ... إن اللقاء بعد يومين أو ثلاثة أمتع وأشهى ... وسأخبرك أو تخبرني عن الموعد متى طلبناه ... ولا نتفق عليه الآن!

واستحسن منها هذا التسويف كما كان من قبل يستحسن منها نشاطها في تعجيل المواعيد، وود في خلده لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يومًا أو يومين، ففي ذلك